مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 05 / العدد: 02 / (2021)، ص326/317

# المقاومة الثقافية في محكي السيرة الذاتية: "خارج المكان" لإدوارد سعيد أنموذجا

# Cultural Resistance in the biographical narration: Edward Said's "Out of Place" as a corpus

**د. أحمد زعزاع**
**ahmedzazaa@gmail.com**
**جامعة علي لونيسي، البليدة2**
**(الجزائر)**

تاريخ الاستلام: 2021/06/26 تاريخ القبول: 2021/09/07 تاريخ النشر:2021/12/02

**ملخص:**

يبرز سعي إدوارد سعيد لفضح خطاب المركزية الغربية في كتاباته المتعددة، وهو ما يظهر في نص سيرته الذاتية "خارج المكان"، الذي يتشكّل فيما يمكن توصيفه بخطاب المقاومة الثقافية.

وقد سعينا في قراءة موازية لنص "خارج المكان" إلى الكشف عن تحوّل عنصر الذاكرة إلى محاولة لتشخيص خطاب الغرب المتمركز وما ارتبط به من خطاب صهيوني من جهة، ومن جهة أخرى إلى إظهار إلى أي مدى تشكَّل محكي السيرة الذاتية كشكل من أشكال المقاومة الثقافية والردّ على التلفيق الصهيوني والتمركز الغربي.

**كلمات مفتاحية:** إدوارد سعيد، المقاومة الثقافية، السيرة الذاتية، "خارج المكان"، الكولونيالية.

**Abstract:**

Edward Said reflected in his political struggle for the Palestinian conflict, and his defence of Islam in terms of exposing the false rhetoric in the Western media. In all his writings, starting with “Orientalism” up to his personal memoirs “Out of Place”.

This included most of his writings among the context of establishing a vision of resistance to Western colonialism, including of racist discourse led by the Zionist one. Said’s writings, therefore, appear in the form that can be described as a cultural resistance.

**Keywords:** Edward Said; cultural resistance; biographies; Out of Place; colonialism.

**مقدمة:**

يخلّف الفعل الكولونيالي في المستعمَر آثارا عميقة لا تنفك تشتغل في الهوية وصناعة الذات ووعيها بوجودها، وهو ما عبّر عنه دارسو النظرية ما بعد الكولونيالية بـ"الخبرة الكولونيالية" التي تتحقّق في ذلك التمازج الذي لا انفكاك منه بين ما يمكن أن يكون من هوية أصلية للمستعمَر وبين ما يكون من ترسّبات تجربة الاستعمار النفسية بالخصوص؛ أي أن تجربة الاستعمار أو ما يعرف بـ"الشرط الكولونيالي"

صار ضمنيا محرّكا للعلاقة المتبادلة بين المستعمِر والمستعمَر لحظة الاستعمار الفعلي أو بعد انتهائه كلحظة تاريخية، ليبقى فاعلا كمضمر ثقافي بوعي أو دونه.

ويظهر أكثر ما يكون ذلك على مستوى الذوات التي عاشت المنفى، خصوصا في المراكز الاستعمارية الكبرى، وهي الحالة التي يمثّل إدوارد سعيد أحد نماذجها الكبرى. ويتجلّى مضمون تلك الخبرة الكولونيالية كذلك فيما يمكن أن يكون من محاولات الردّ على سرديات الآخر أو تمثيلاته للأنا التي تعتمد استراتيجيات الاختلاق ومحاولات الطمس والقفز على الحقائق وتشويهها، انطلاقا من كون المستعمِر كان في لحظة تاريخية معيّنة متحكِّما في الخطاب ممتلكا لآلياته، ما جعل خطاب المستعمَر اللاحق يتشكّل كخطاب ردّ ومقاومة ثقافية. وهو ما يقف عنده إدوارد سعيد في نصه السير ذاتي "خارج المكان".

## 1- الوعي بإرادات الهيمنة واستراتيجيات الاختلاق في الخطاب الكولونيالي:

### 1-1- الخطاب الفلسطيني والتأسيس لفكرة المقاومة الثقافية:

لا يكاد يختلف المشروع الاستيطاني الصهيوني العنصري عمّا ارتبط بالكولونيالية الغربية من مقولات مؤسِّسة، إذ إن إرادة السيطرة على التاريخ هي واحدة في الحركتين، وتجلّت بشكل أوضح في الحالة الصهيونية بالاختلاق التاريخي لدولة لليهود وربط تاريخ المكان- فلسطين- بتاريخهم، في اختزال واضح ونفي مطلق لسابق وجود تاريخي في فلسطين لغيرهم، وبذلك ترتبط الصهيونية بالكولونيالية لتظهر كإحدى تجسيداتها عندما تبرّر لفعل الاستيلاء على الأرض بحجة الأحقية التاريخية التي تسمح لها بالتوسع في الفضاء، وفق مقتضيات زيادة عدد المستوطنين من جهة وعدم أهلية الفلسطيني على أصعدة متعددة للبقاء، في صورة سلبية تقدّمه متضادا جوهريا مع اليهودي حسب الرؤية الصهيونية[1].

ولا يمكن الحديث عن مفهوم المقاومة الثقافية دون الحديث عن الحالة الفلسطينية التي تجابه عمليات الاستيطان والتهجير والنفي والقتل الدائم؛ مقاومةٌ جسّدها خطاب ملتزم بالقضية، داعم وواعٍ باستراتيجيات الكولونيالية وخطابها المؤسَّس على ما يشبه الحالات الممارَسة على الأرض من تهجير ونفيٍ وقتل رمزي على مستوى الخطاب، من حيث إن التمثيل الرمزي وطريقة تصوير الآخر في الخطاب الكولونيالي تتبنى تصدير صورة عن المستعمَر تتوافق وإرادات المستعمِر، خادمة لمقصديته وتنزع نحو تضخيم الصورة السلبية في الآخر أو المستعمَر. وهذا ما يجعل الذات المستعمَرة تتشكّل وفق ما يقتضيه سياق العلاقة مع الآخر المستعمِر، وبالتالي غير منفكة عن التحقق وفق ما تقتضيه الخبرة الكولونيالية، وتصيّرها في حال من ردّ الفعل الذي يأخذ منحيين اثنين: أولهما يكمن في محاولة تقويض تلك الصورة المزيفة، وثانيهما يتمثّل في إعادة بناء التصوّر الفعلي للذات.

لقد وجدت الأدبيات الفلسطينية نفسها- بأشكالها المتعددة- إلى حدّ كبير وجها لوجه أمام آلة خطابية صهيونية جبّارة ومدعومة، تعتمد على ترسانة إعلامية تضليلية بالأساس، تشتغل بآلية "الاختلاق"، ما جعل همّ تلك الأدبيات الأساس موجّها لكشف زيف ادّعاءات اليهود في الوجود المطلق في فلسطين المتجاهل لكل الإرث والتاريخ الفلسطيني. وهو الادّعاء الذي مسّ كل نواحي الحياة الفلسطينية التي وجدت نفسها فجأة تتحوّل، وهو ما يمكن تلمّسه فيما كتبه إدوارد سعيد في مذكراته

الخاصة "خارج المكان"، حيث يُظهِر في نصه وعيا بطبيعة الاستنساخ الموجودة في بنية الخطاب الصهيوني العنصري وأصله الكولونيالي الغربي.

والخطاب الفلسطيني- انطلاقا من فكرة المقاومة الكامنة فيه- يتأسّس في شكل من أشكال الوعي بالتجربة الاستعمارية، على اعتبار أن الصهيونية تتجلى كتجسيد للفعل الكولونيالي وما يقترن به من خطاب يعتمد آليات التضليل والتزييف ومحاولات القضاء على صور الهوية الأصلية للمكان وما يمكن أن يشكّل تاريخا فلسطينيا حقيقيا، في مقابل صناعة تاريخ ملفق يتوارى خلف مجموعة من الصور التمثيلية المختلقة والمزيفة. وليس من العسير الوقوف على حدود التداخل الموجود بين الكولونيالية كفعل نتاج المركزية الغربية، والصهيونية كحالة تستنسخ خصائص تلك المركزية المبنية أساسا على مفاهيم الفوقية والاستعلاء والتفوق.

## 1-2- إدوارد سعيد وتشكيل الخطاب المضاد:

يبرز الأدب كشكل من أشكال المقاومة الثقافية، حين تتشكّل النصوص وفق آليات تتوخى الردّ على تزييف التاريخ والاختلاق والكتابة بالنيابة، وذلك بالعمل على استرداد السرد المترادف مع استرداد رمزية المكان والهوية. وهو ما يظهر بشكل أكثر تجليا فيما كتبه الفلسطينيون في أدبياتهم المختلفة، سواء كانت روايات أو أشعار أو مذكراتهم وسيرهم الذاتية، وغيرها من أشكال الكتابة التي تستحضر الذات بالقدر ذاته الذي تستحضر القضية الجمعية، على اعتبار أن حالة الفقد التي عاشها الفلسطينيون كانت مزدوجة، مثلما يقول ادوارد سعيد: "لفقدان فلسطين بعدان: بعد مجاله الواقع، والآخر مجاله الإيديولوجيا والخيال والإسقاط والفن.. في البعد الأول فلسطين أرض كان يعيش فيها الفلسطينيون العرب، أرض فقدوها، أرض يحكمها الآن آخرون، أرض سلبت من الفلسطينيين ويعيشون فيها الآن حالة من استُعمروا من الداخل. أما في البعد الثاني ففلسطين هي مكان يُكتَب عنه، يُحلَم به.."[(2)]. وبهذا فقد امتزجت تجربة الردّ بالكتابة على الخطاب الصهيوني الكولونيالي بمفاهيم المنفى والذاكرة بالأساس في محاولة لاسترداد السرد وإبراز الهوية الحقيقية للمكان وفضح البنى العنصرية التي تشكّل الخطاب الكولونيالي المستَنسَخ في الخطاب العنصري الصهيوني.

ويعدّ إدوارد سعيد أحد أهم المشتغلين على حقل النظرية الكولونيالية وما بعدها، وقد أثار العديد من النقاط الإشكالية فيما يتعلّق بعلاقات القوة المبثوثة في الخطاب، خصوصا ما ارتبط بتشخيص الخطاب الكولونيالي الغربي المتضمَّن إيديولوجية الهيمنة وإرادة إخضاع الآخر والسيطرة عليه.

وتجسد تتبّع إدوارد سعيد لذلك في الكثير من أعماله النقدية الكاشفة في تقصٍ وبحث عميقين عن وعي الرجل بالخلفيات المشكّلة لمفهوم التمركز الغربي ومقصديته ومحاولة فضحها، بالإضافة إلى نضاله السياسي من أجل القضية الفلسطينية، ودفاعه عن الإسلام من منطلق كشف زيف الخطاب التهويلي في وسائل الإعلام الغربية. ويتبنى إدوارد سعيد تلك الرؤية اقتناعا منه بدور المثقف المتجاوز لكل الدوغمائيات والمتحرر من كل القيود، في كتاباته المتعددة، ابتداءً بالاستشراق وصولا إلى مذكراته الخاصة "خارج المكان"، بما جعل أغلب كتاباته تندرج في سياق التأسيس لرؤية مقاومة للأطروحات الغربية الكولونيالية وما دار في فلكها من خطابات عنصرية على رأسها الخطاب الصهيوني، ليظهر ما يكتبه في صورة مما يمكن توصيفه بالكتابة المقاومة ثقافيا.

وتنبّه إدوارد سعيد إلى أهمية الذاكرة وتزايد التركيز عليها في الدراسات الإنسانية، وربط ذلك بالجغرافيا والمكان وإرادة تملّكه، مركّزا على نقطة أساسية مرتبطة بفكرة "الاختلاق" التي تعدّ عنده امتدادا لقضية "التمثيل" المشكّلة لصلب انشغالات مشروعه الساعي لفضح الخطاب الاستعماري وامتداداته النصية، من حيث كشفُه لعلاقة الخطاب بالقوة والسرد بالإمبراطورية، مثلما أشار في دراستيه المهمتين "الاستشراق" و"الثقافة والامبريالية"، عندما تتبّع تداخل الصورة المركّبة عن الشرق مع قضية "التمثيل" التي اعتمدها الغرب، وحاول من خلالها خلق صورة عن الشرق تستجيب لتصوراته الخاصة عن هذا العالم المختلف عنه، ولا تمثّل حقيقة الشرق، الذي يظهر كـ"صناعة" غربية بغية تبرير التحكم فيه والسيطرة عليه، وهو الأمر نفسه الذي تنبّه له في خطابات الروائيين الغربيين الذين اشتغل عليهم كنماذج في "الثقافة والامبريالية"، حينما ربط تطور السرد بالتوسع الاستعماري، وجعل الرواية الغربية كخطاب خادمة أو سائرة لترسيخ الخطاب المركزي والمتعالي الذي يبرر لفعل الاستعمار الغربي[3].

## 2- "خارج المكان": الكتابة عن الذات والمقاومة الثقافية

### 2-1- السطو على التاريخ والردّ على الاختلاق:

لطالما تداخل الفكري مع الذاتي في أعمال الكثير من المفكرين الذين يسعون إلى كتابة مذكراتهم الشخصية أو سيرهم الذاتية بغرض إظهار التمازج الحاصل بين الذات في أولوياتها والسياقات التاريخية التي انوجدت فيها؛ هذا النوع من التأليف الذي أصبح تفاعل النقد معه وتلقيه يتم على أساس كونه نصا متشعبا، يسمح بالولوج إلى عوالم تشكّل شخصية كاتب السيرة الذاتية، وفي الآن نفسه إلى محطات تشكّل عوالمَ فكرية انبنت كمحصلة لتداخلات متعددة. بما يجعل تلك النصوص، حسب إدوارد سعيد، والدراسات المرتبطة بها، فاتحة لمجالات بحث حول مواضيع كثيرة مرتبطة بالذاكرة الجمعية والتاريخ العام، بتجاوزها الحديث المقتصر على الذكريات الشخصية البحتة أو الاعترافات وتناولها لأحداث تاريخية ساهمت بشكل أو بآخر في بلورة تصورات معينة عن قضايا تتجاوز الذات أو الفرد إلى علاقات الشعوب فيما بينها[4].

وفي إطار متعالق يمكن أن نقرأ السيرة الذاتية لإدوارد سعيد "خارج المكان"، إذ إن هذا النص يضع متلقيه أمام مجموعة من الإشكاليات المتأتاة من طبيعة الفعل الكتابي عند إدوارد سعيد، فهو وإن كان يشكّل سردا واسترجاعا لذكريات مرتبطة بشكل أكبر وأساسي بشخصه وعائلته وترحاله بين مدن المشرق والغرب، إلا أن نصه يجعل متلقيه يتلمّس حضور المقولات الفاضحة للخطاب الغربي المتعالي، وهذا ما يتجلى في تشكّل نص السيرة الذاتية عند إدوارد سعيد في بعض الأحيان باعتباره فعل كتابة مضادة، يحاول من خلاله الكاتب استرجاع التاريخ المغتصَب، في امتداد لمشروعه الكبير في فضح سرديات وتمثيلات وكذا اختلاقات المشروع الاستعماري، بما يجعل "خارج المكان"، بالرغم من كونه نصا سير- ذاتيا، مندرجا في بعض جوانبه ضمن سياقات استرجاع الحق في السرد وتمثيل الأنا، وفضح "اختلاقات" الآخر التي طالما كرّسها من أجل إحكام السيطرة، ضمن سياق ما يعرف بالكتابة المقاومة ثقافيا.

ويفعل إدوارد سعيد ذلك من دون إغفال لحضور الآخر واستيعاب تدخله- كائنا من كان- بحثا عن تحقق الأنا في تعددها، صوغا لهوية تؤمن بـ"الهجنة"، وتجعل من ذلك إمكانا لتحقّقها، مبتعدا عن

مفاهيم مثل "الهوية النقية"، على اعتبار أن الذاكرة تطال كما يقول إدوارد سعيد "مسألة الهوية والقومية، والقوة والسلطة"[5]؛ المفاهيم التي ترتبط في ما بينها بفكرة الفصل بين الشعوب وفق قوميات وأجناس مختلفة لا مجال للامتزاج بينها، بما يجعل مكتسِب القوة في الأخير هو المهيمن والهويات الأخرى في تراتبيتها تابعة له باعتبارها أقل منزلة من جهة، ومن جهة أخرى بما يكون من خدمة هذه الأفكار للسلطة التي تستند عليها لتبرير وجودها وتحكّمها.

وقد شكّلت القضية الفلسطينية همّا مركزيا عند إدوارد سعيد الذي قاربها من زوايا عدة، غير أن الاهتمام الأساس المتعلّق بها وجّهه إلى كشف زيف الرواية الصهيونية للتاريخ، وادّعاءات اليهود في الوجود المطلق في فلسطين كجغرافيا وتاريخ، عندما يتم تصدير صورة مزيّفة يُتجاهل فيها التاريخ الفلسطيني ويتم القفز عليه من خلال مغالطات تاريخية واستراتيجيات متنوعة لطمس الإرث الفلسطيني في هذه الأرض من جهة، ومن جهة أخرى بالسعي لشرعنة الوجود اليهودي في فلسطين وجعله حقيقة تاريخية، وذلك بمحاولة اختلاق تراث جمعي يهودي يجعل الارتباط بأرض فلسطين حقا شرعيا لليهود، من خلال تبني جملة من الممارسات المادية والخطابية، التي تصبّ في باب التمكين لمقولة "يهودية الأرض"، ليُصيَّر الأمر متقَبّلا في الأخير على أكثر من صعيد؛ في أوساط اليهود أنفسهم، وحتى على مستوى الرأي العام العالمي، والغربي خصوصا الذي كان اليهودي "يستغله" ويخز فيه "ضميره" باستحضار عقدة "الهولوكست"[6].

ويستعيد إدوارد سعيد هنا صور الاختلاق الممارَس من قِبَل الكولونيالية التي تجسّدها في هذه الحالة القوة الصهيونية من جهة، ومن جهة ثانية يحضر الفعل المقاوم لذلك الذي تبناه بعض الفلسطينيين "لاسترداد واقع تاريخي جمعي"[7]، على اعتبار أن القوة الصهيونية التي سيطرت على الأرض عمدت إلى تبني تاريخ يتجاوز وجود الفلسطينيين على أرض فلسطين ويجعله ثانويا، في مقابل اختلاق تاريخ آخر مصنوع بشكل يصوّر الأرض ملكا لـ"أصحابها" الجدد وكأنها لم تعرف لها ساكنين غيرهم. وتَرافَقَ في الحالة الفلسطينية الاستحواذ على الأرض مع محاولات الاستحواذ على الذاكرة والتاريخ والأسماء، ففي إطار استحضار إدوارد سعيد لذكرياته عن فلسطين يشير إلى تملّك المهاجرين الجدد لأماكن كانت في الأصل ملكا للفلسطينيين، حيث يقول: "ومنذ أيامي الأولى في القدس إلى آخرها فيها، أذكر بوضوح أن الطالبية والقَطَمون والبقعة الفوقى والتحتا كانت مأهولة بالفلسطينيين دون سواهم.."[8]. بل إن الأمر يتعدّى السيطرة على المكان إلى محاولة السطو على الرمزية المرتبطة به، مثلما كان من محاولة تحويل القدس عن طابعها العربي إلى مدينة فاقدة لهويتها الأصلية، فيقول إدوارد سعيد: "ولا يزال يصعب عليّ أن أتقبّل حقيقة أن أحياء المدينة تلك، حيث ولدت وعشت وشعرت بأني بين أهلي، قد احتلها مهاجرون بولونيون وألمان وأميركيون غزوا المدينة وحوّلوها رمزا أوحد لسيادتهم، حيث لا مكان للحياة الفلسطينية التي انحسرت إلى المدينة الشرقية التي أكاد لا أعرفها. فلقد أضحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل، وطُرد منها سكانها السابقون نهائيا في أواسط العام 1948"[9].

وهذا الطرد بطبيعة الحال يترافق مع محاولة تحطيم كل رمزية للمكان، اسما أم مشهدية، حيث تمّ استبدال الكثير من الأسماء العربية لبعض المناطق التي احتلها اليهود بأسماء أخرى، بعد أن حُوّلت إلى مستوطنات يهودية، وهو ما يؤكد عليه إدوارد سعيد في مقال له "أعيد تسمية هذه المناطق بـ"يهوذا والسامرة"؛ فقد تمّ تحويلها اسماً من مناطق "فلسطينية" إلى مناطق ومستوطنات "يهودية"، التي لم يكن

غرضها منذ البداية أقل من تحويل مشهدية المكان بإدخال قسري لمساكن شعبية ذات نمط أوروبي من دون سابقة ولا جذور في الجغرافيا المحلية"[10]. فالأمر بطبيعة الحال مندرج في إطار سياسة استيطانية إحلالية[11] تسعى لاقتلاع شعب بأكمله، تاريخا وهوية وجغرافيا، لتحلّ محلّه جماعات متفرقة.

إنّ محكي المكان في "خارج المكان"، وإن اقترن أساسا بذاكرة المكان والطفولة، فقد تبناه إدوارد سعيد كاستراتيجية لفضح زيف الخطاب الصهيوني أولا وللردّ عليه وتقديم الصورة الحقيقية ثانيا، حيث أراد أن يقول إن للمكان روحا وماضيا وتاريخا يختلف عن الحاضر المسكون من قِبل غرباء عن المكان، وأصحابه هم الآن خارج المكان يتحدث سعيد على لسانهم، ليقول إن هناك مغالطة تاريخية في توصيف فلسطين وتاريخ أهلها، ليحكي قصة شعبه؛ شعب اختزل تاريخه وجغرافيته. وهو ما كان قد استرجع صورته اللاواعية في مسروده عن ذكريات المرحلة الإعدادية في القاهرة، حيث يقول: ""اتّسمت حياتنا في فكتوريا كولدج بتشوه كبير لم أدركه حينها... علّمونا عن حياة إنكلترا وآدابها، وعن النظام الملكي والبرلمان، عن الهند وإفريقيا، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر أو في أي مكان آخر"[12]. فإدوارد سعيد الطفل غير واع لحظتها بالمحمول الكولونيالي الكامن في الخطاب المدرسي الذي تلقاه في تلك الفترة من عمره، لتصير التنشئة الاجتماعية بشكل من الأشكال أداة من أدوات صناعة وتشكيل وعي مختلف؛ يترتب عنه بالضرورة الانفصال عن الثقافة الأصلانية والارتباط بثقافة المستعمِر، وبذلك يسهل قولبة الآخر وفق القالب الذي تريده الإرادة الاستعمارية في جعله تابعا.

ويتعاظم الوعي اللاحق لدى إدوارد سعيد بخطورة صناعة الوعي الزائف عندما يشير إلى عدم اقتصار العملية التعليمية على صبّ التاريخ المزيف وربط التلميذ به، بل يتعدى الأمر إلى محاولة فصله النهائي عن تاريخه بطرائق متعددة تصل حدّ العقوبة عندما يقول: "ولما كان الانتماء العربي وتكلم اللغة العربية يعدّان بمثابة جنحة يعاقب عليها القانون في فكتوريا كولدج، فلا عجب ألا نتلقى أبدا التعليم المناسب عن لغتنا وتاريخنا وثقافتنا وجغرافية بلادنا"[13]. فيبدو أن القوة الكولونيالية لا تنفك تعمل أدواتها في صناعة تاريخ مواز لتاريخ الأصلانيين، وفي الوقت ذاته تحاول فصلهم التام عنه، وهو ما يتجسد في حال إدوارد سعيد من خلال وضع التلاميذ وهو منهم ضمن إطار تعليمي لا يعرض لأي معطى لغوي أو تاريخي أو ثقافي أو جغرافي أصلاني.

### 2-2- إمكانات تحقّق الهوية وكشف التحيّزات الغربية:

إن حكاية الشعب الذي سُلب أرضه تتراكب مع حكاية الفرد في نص "خارج المكان"، لترسم لنا انزياحات متعددة مرت بها شخصية إدوارد سعيد التي حرمت الاستقرار، وكانت دائما تعيش في مناطق "الما بين"، التي تجعل مسألة الهوية عنده- خاصة في مراحله الأولى- ملتبسة بالبحث عن "الأصل الثابت"، مثلما يقول عن نفسه وعن أهله: "كنت أتمنى بشكل محموم لو أننا جميعا عرب كاملون أو أوروبيون أو أمريكيون كاملون أو مسيحيون أرثوذكسيون كاملون أو مسلمون كاملون أو مصريون كاملون، وما إلى ذلك"[14]، بل يتعدّى ذلك الالتباس الانتماء العائلي لإدوارد سعيد ليمتد إلى اسمه العربي "سعيد" المرتبط بالخلفية الانجليزية في "إدوارد"، ووجوده كفلسطيني في مصر مع حمله لجواز سفر أمريكي، ليتشكّل في الأخير كائنا خارج كل شيء، داخل دائرة "الشعور المقلق بتعدد الهويات"[15]، كما يقول.

غير أن ذلك البحث عن "النقاء الهووي" أو "الصفاء الهوياتي" انتفى مع وعي إدوارد سعيد بحدود الهيمنة التي تراد أن تُفرض على الإنسان، حينما تتم موضعته في إطار "الهوية النقية"، التي تتقابل في الآن نفسه- بالضرورة- مع "هويات" متضاربة لتتسيّد في الأخير "الهوية" الممتلكة للقوة، فالتركيز الكبير على سياسات الهويات القومية هو نتاج التجربة الامبريالية، حيث يقول: "حين جرى التوسع الامبريالي الغربي الحديث والكبير في أرجاء العالم، ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر، عمل على إذكاء التفاعل بين هوية الشعب الفرنسي أو الشعب الانجليزي وهويات الشعوب المحلية المستعمرة"[16]، فإدوارد سعيد ينبّه إلى تدخلات القوة ومحاولات الهيمنة في بلورة مفهوم الهوية النقية أو الصافية، والمرتبطة أساسا بالإمبراطورية وبالمركزية الغربية، التي تجعل الشرقي خصوصا والمستعمَر عموما في مرتبة دنيا في مقابل المركز الغربي الاستعماري.

وكان ذلك التفاعل بين الهويات- حسب إدوارد سعيد- ضديا، بما يجعل الانفصال حتميا لا إمكانية معه لاستيعاب الاختلاف الهووي، على اعتبار أن الامبريالية تؤسس لأطروحة "أن كل امرئ هو أساسا وعلى نحو لا يقبل الاختزال عضو في عرق أو صنف معين، وأن هذا العرق أو الصنف لا يمكن أن يستوعب في الأعراق أو الأصناف الأخرى أو يقبل لديها، إلا كما هو. ومن هنا برزت إلى الوجود تلك الماهيات المبتدعة، مثل المشرقي أو الهوية الانجليزية، وكذلك الفرنسية والأفريقانية.."[17]. وعلى هذا فإن التركيز على المفهوم الضيق للهوية كان بالأساس خادما للمشروع الاستعماري، الذي يمهّد من خلال الترسيخ لمثل هذا التصور لأطروحات مرتبطة بتخلّف المشرقي مثلا أو الأفريقاني وبقائه على تلك الحال، في حين إن المستعمِر الانجليزي أو الفرنسي يحمل هوية متعالية متمايزة تبيح له السيطرة على الآخر "المتخلّف".

ويسوق إدوارد سعيد في مذكراته الكثير من المواقف التي بنت وعيه بمحاولة المركز الغربي الاستعماري خلق حالة من الإيهام بالتميز، وبالتمكين لأطروحة الغربي المتحضّر والشرقي المتخلف الذي لا يتأتى له التقدم إن حصل إلا بالانقياد للغرب، والبقاء كتابع مطيع يلبي الأوامر منصاعٍ لإرادة سيده، مع ضرورة عدم تجاوز ذلك المشرقي للحدود المرسومة له. ويسرد إدوارد سعيد حادثتين كانَ لهما تأثير واضح على تفكيره وبداية وعيه بنظرة الآخر، أولاهما مرتبطة بعقاب ناله من المدير البريطاني للمؤسسة الابتدائية التي كان يتمدرس بها، واستسلامه التام لذلك العقاب غير المبرر، والثانية هي المواجهة مع الانجليزي الذي وجّه له خطابا آمرا لما وجده في النادي: "يا ولد. غادر المكان، وغادره بسرعة. ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربي!"[18].

فهذان الموقفان وإن وردا في إطار بوح شخصي يتحدث فيه إدوارد سعيد عن يومياته في المدرسة الابتدائية، إلا أن استحضارهما في سياق الحديث عن الهوية يجعلنا نعود إلى ما أشرنا إليه سابقا من فكرة "الهوية النقية أو الصافية". فبعد نقلِ ذلك الخطاب الانجليزي الآمر بالمغادرة نجد إدوارد سعيد يقول: "وحتى لو لم يسبق أن فكرت بنفسي بوصفي عربيا، فقد أدركت مباشرة آنذاك أن معنى النعت مفقد للأهلية حقا"[19]. إذاً فالغربي يحاول- حسب إدوارد سعيد- أن يضع الحدود الفاصلة بين الهويات ويرسّخ خطاب الهوية الخاصة، بما يجعل في الأخير المستعمَر منبوذا وفاقدا لـ"خاصية" أو لـ"شيء وهمي" مكتسب من قِبَل المستعمِر وهو الهوية المتميزة، وفق نظرة استعلائية عنصرية وتمركز غربي، يموضع العلاقة في إطار ثنائية

مانوية: المستعمِر والمستعمَر أو السيد والتابع، ولكل حدّ من الثنائية فضاءاته الخاصة المرسومة بدقّة، والتي لا يجوز للأدنى تجاوزها، وإن حصل ذلك عُدّ تعديا لابد من عقاب حتى لا يتكرر.

وهو الأمر الذي وقف عنده إدوارد سعيد في اسم المدير الانجليزي لمدرسته في القاهرة، وما يمكن أن يقترن بتأكيد المدير كل مرة على تهجية اسمه بطريقة متعالية، حيث يقول: "وخير تجسيد لتلك السلطة الكولونيالية المتهاوية هو رئيس المدرسة، المستر جي. جاي. إي. برايس، وترمز غابة الأحرف الأولى التي يحملها إلى الهوس بالنسب الرفيع والمباهاة بالنفس، وقد اعتبرت ذلك على الدوام، منذ ذلك الحين، من الصفات المميزة للانكليز"[20]. فذلك الهوس يترجم إلى حدّ كبير- وفق إدوارد سعيد- تلك النزعة المتعالية والمتمركزة على الذات عند الغربي، والتي يصنع من خلالها حدا فاصلا بينه وبين آخره.

ويتجلّى عدم تقبّل الآخر والوعي بالرفض عند إدوارد سعيد- الذي يقدّم نفسه كنموذج لنفي الغرب للمناوئين لأفكاره التسلطية خاصة من العرب- في نص "خارج المكان" بشكل يوحي بأن فكرة الردّ بالكتابة لم تفارق الكاتب حتى وهو في خضم تقديم رؤى شخصية لعوالمه الخاصة، مثلما يذهب إليه بيل أشكروفت عندما يعدّ أن الخبرة الكولونيالية ساهمت بشكل كبير في صياغة آداب ما بعد الكولونيالية وكذا النصوص والنظريات المعتمدة في هذا المجال[21]. ولعل عدم منح مسؤولي الجامعة إدوارد سعيد الكلمة في حفل التخرج بالجامعة الأمريكية- رغم أحقيته للحصول عليها كما قال- جعله يستوعب بشكل أكبر الرفض الممارس ضد كل مختلف ينتمي لفضاء خارج الفضاء السلطوي المهيمن، حيث يقول الكاتب: "وهنا شعرت بأن قدومي من جزء من العالم في حال من المخاض الفوضوي، صار يرمز إلى أني في غير مكاني. كانت ماونت هيرمون مدرسة للبيض أساسا.. إلى حين وقوع حادثة فيشر وحفل التخرج، كنت أحسبني بلا لون، لكن ذلك ألزمني بأن أرى نفسي هامشيا وغير أمريكي، ومنبوذا ومعيبا"[22]. وقد جعل فعلُ الإقصاء أو الاستبعاد الضمني في تلك الحادثة إدوارد سعيد يستوعب- بعد ذلك- بشكل أكبر مفهوم المنفى الذي كان مكانيا أو جغرافيا ليصبح مؤسساتيا وثقافيا، عندما تصبح أطروحات سعيد فيما بعد محل رفض ومجابهة في الأوساط الأمريكية على اعتبار تبنيه قضية فلسطين همّا أساسيا، وفق وجهة نظر صدامية مع الموقف العام في أمريكا الذي كان يميل لصالح الرواية الصهيونية.

**خاتمة:**

إن عتبة الكتاب الأولى وهي العنوان "خارج المكان" تحقيق لمفهوم الوجود في الزمان خارج الجغرافيا، وبالتالي العودة إلى الكينونة التاريخية للهوية المتحققة في الوعي بالذات في توزّعها بين الأمكنة. فقد عاش إدوارد سعيد حياته موزعا بين العديد من الانزياحات؛ انزياحه عن المكان وعن العائلة وعن اللغة، في منفى متعدد، ليجد نفسه في الأخير "خارج المكان"، متحققا في الزمان بما أثارته آراؤه وما ستثيره من نقاشات أكيدة. ولعل عنوان سيرته الذاتية "خارج المكان"، التي ارتأى كتابتها بعد وعيه بمرضه، وباقتراب رحيله الأخير عن كل الأمكنة وعن كل شيء، تحقيق لمفهوم الوجود في الزمان، تحقيق لـ"الهجنة" التي آمن بها سعيد، عندما يتعيّن وجود الإنسان في كليته المتعالية عن الاختزالات؛ وجود خارج الحدود المرسومة، خارج الجغرافيات وخارج الانغلاق الهوياتي والواعي في الآن نفسه بما يشكّل خصوصية الذوات.

يجعلنا نص "خارج المكان" أمام كتابة متجاوزة للخصوصية الأجناسية عند الغوص في مقصديات مشروع إدوارد سعيد في فضح خطابات الهيمنة، إذ إن الكتابة عنده تتأسس باعتبارها مقاومة ثقافية وردّا بالكتابة وخطابا مضادا، يحاول من خلال ذلك الكاتب استرجاع التاريخ والسرد المغتصبين، في امتداد لمشروعه الكبير في فضح سرديات المشروع الاستعماري، بما يجعل نص "خارج المكان"- بالرغم من كونه نصا في السيرة الذاتية- مندرجا في سياق الخطاب ما بعد الكولونيالي الساعي إلى استرجاع الحق في السرد وتمثيل الأنا من غير تدخل الآخر، في شكل من أشكال الوعي بالهوية ومدى تحقق الأنا في تعددها.

وقد ظهر تداخل الفكري مع العرض لما هو ذاتي واضحا من خلال اعتماد إدوارد سعيد على مجموعة الاستراتيجيات الكتابية الفنية التي تظهر جلية في الاسترجاعات المختلفة، منذ مرحلة الطفولة وانتهاء بوعيه بالموت المحتم جراء مرض السرطان، وكيفية تصوير كل ذلك في قالب تظهر فيه اللحظة المعيشة المتشكلة في سياق ما يعرف بالخبرة الكولونيالية في شكل المتخيل السردي الفاضح للخطابين الكولونيالي والصهيوني والمسترجع للسرد الذي يتراكب فيه التاريخ الخاص مع العام. وذلك انطلاقا من رؤية الكاتب لماضيه ليس كإنسان عادي نشأ في خضم ظروف غير عادية فحسب، بل رؤيته لأفكاره وتصوراته لكثير من القضايا بما ينسجم مع ما يولّده الشرط الكولونيالي.

**قائمة الإحالات:**

1- ينظر عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1982، الجزء الأول، ص107.

2- إدوارد سعيد، "تجربة الاستلاب"، مجلة الكرمل، مؤسسة الكرمل الثقافية، فلسطين، العدد 8، أبريل 1983، ص.17

3- ينظر وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، دار ميم، الجزائر، ط1، 2018، ص34.

4- ينظر إدوارد سعيد، "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، ترجمة: رشاد عبد القادر، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 104، أكتوبر 2000، ص14.

5- نفسه، ص15.

6- ينظر زيجمونت باومان، الحداثة والهولوكست، ترجمة: حجاج أبو جبر ودينا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط1، 2014، ص41.

7- إدوارد سعيد، "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، مرجع سابق، ص26.

8- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000، ص149.

9- نفسه، الصفحة نفسها.

10- إدوارد سعيد، "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، مرجع سابق، ص33/32.

11- عبد الوهاب المسيري، الايديولوجية الصهيونية1، مرجع سابق، ص129.

12- إدوارد سعيد، خارج المكان، مصدر سابق، ص233.

13- نفسه، الصفحة نفسها.

14- نفسه، ص28/27.

15- نفسه، ص 27.

16- إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى1، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط1، 2004، ص216.

17- نفسه، الصفحة نفسها.

18- إدوارد سعيد، خارج المكان، مصدر سابق، ص72.

19- نفسه، الصفحة نفسها.

20- نفسه، ص233.

21- ينظر بيل أشكروفت وآخران، الردّ بالكتابة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006، ط1، ص17.
22- إدوارد سعيد، خارج المكان، مصدر سابق، ص 306/305.

**المصادر والمراجع:**

1- إدوارد سعيد، "الاختلاق، الذاكرة والمكان"، ترجمة: رشاد عبد القادر، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 104، أكتوبر 2000.
2- إدوارد سعيد، "تجربة الاستلاب"، مجلة الكرمل، مؤسسة الكرمل الثقافية، فلسطين، العدد 8، أبريل 1983.
3- إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى1، ترجمة: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط1، 2004.
4- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000.
5- بيل أشكروفت وآخران، الردّ بالكتابة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006.
6- زيجمونت باومان، الحداثة والهولوكست، ترجمة: حجاج أبو جبر ودينا رمضان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط1، 2014.
7- عبد الوهاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1982.
8- وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة، دار ميم، الجزائر، ط1، 2018.